



The political implications of the transfer of the Sanusi center from Jaghbug to Kufra

Idris Othman Amjawar Musa^{1*} and Muhammad Mahmoud Muhammad Obid Allah²

¹ School of Human Sciences/Department of History/Division of Modern and Contemporary

History/Libyan Academy for Postgraduate Studies/Green Mountain/Libya

Department of Modern and Contemporary History/Faculty of Arts/Omar Al-Mukhtar University/ Libya

Received: 30 April 2025 / Accepted: 30 June 2025

DOI: <https://doi.org/10.58309/975a1g84>

KEYWORDS:

Sanusiyya, France, Kufra,
Muhammad al-Mahdi,
Ouaday,

ABSTRACT:

This research deals with the political effects of the transfer of the Senussi center from Jaghbug to Kufra on the surrounding powers. The research shows how the Ottoman authorities were overwhelmed by their situation. It was going through a period of weakness that made it vulnerable to the ambitions of foreign countries that were inciting it against the Senussi order, which led it to move its headquarters to Kufra to distance itself from the Ottoman authorities, to limit French advances in the African kingdoms, and to protect the southern Barqa. The research reached a set of results, the most important of which are: the serious step taken by the Ottoman authorities to get closer to Sayyid al-Mahdi by sending the special envoy of Sultan Abdul Hamid II to Kufra laden with gifts in an attempt to appease him, as well as the improvement of the relationship between the Senussi and the African kingdoms, and the flourishing of the caravan trade on the Benghazi-Oueddai road. The most important result was the escalation of the Senussi-French dispute, which led to a direct clash with the French in an unequal war that resulted in the Senussi retreating inland.

الآثار السياسية المترتبة على انتقال مركز السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة

إدريس عثمان مجاور موسى^{1*} ومحمد محمود محمد عبيد الله²

¹ مدرسة العلوم الإنسانية/ قسم التاريخ/شعبة التاريخ الحديث والمعاصر/الأكاديمية الليبية للدراسات العليا/البيضاء/ليبيا

² قسم التاريخ الحديث والمعاصر/ كلية الآداب/ جامعة عمر المختار/البيضاء/ليبيا

الكلمات المفتاحية:

المستخلص:

السنوسية، فرنسا، الكفرة، محمد المهدي،
واداي،

تناول هذا البحث الآثار السياسية لانتقال مركز السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة على القوى المحيطة بها ، وتبين من خلال البحث كيف كانت السلطات العثمانية مغلوقة على أمرها وتمر بمرحلة ضعف جعلها عرضة لمطامع الدول الأجنبية التي كانت تقوم بتحريضها على السنوسية مما جعلها تنقل مركزها إلى الكفرة للابتعاد عن السلطات العثمانية، وللمحد من التقدم الفرنسي في الممالك الأفريقية ولحماية الجنوب البرقي. توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها: الخطوة الجادة التي اتخذتها السلطات العثمانية للتقرب من السيد المهدي بأرسال المبعوث الخاص للسلطان عبد الحميد الثاني للكفرة محملاً بالهدايا في محاولة لاسترضائه، وكذلك تحسن العلاقة بين السنوسية والممالك الأفريقية، وازدهار تجارة القوافل على طريق بنغازي-واداي، والنتيجة الأهم تصعيد الخلاف السنوسي الفرنسي، مما أدى إلى الصدام المباشر مع الفرنسيين في حرب غير متكافئة كانت نتيجتها تهجير السنوسيين إلى الداخل.

المقدمة:

لا شك أن انتقال مركز السنوسية من الجغبوب للكفرة عام 1895م، ترتب عليه عدة آثار اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وبالطبع كانت له آثاره السياسية أيضاً، سواء على الطريقة السنوسية، أو على السلطات العثمانية التي كانت تحكم الإقليم، أو على الممالك المجاورة فيما يسمى بالسودان الأوسط، والسودان الغربي، وعلى الصحراء الأفريقية بصفة عامة، وكذلك على القوى الاستعمارية التي كانت تبسط نفوذها على الصحراء، وتحاول اقتسامها، وكانت ترى في الطريقة السنوسية عائقاً دون ذلك، فسعت جاهدة لبث الفتنة بين السنوسيين والسلطات العثمانية، التي لم تكن تملك زمام أمرها نتيجة تدهور أوضاعها السياسية والاقتصادية. تكمن أهمية هذا البحث في بيان هذه الآثار السياسية الناتجة عن انتقال مركز السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة، ولعل هذا هو الهدف الأساسي من نشر هذا البحث الذي تم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث: عني المبحث الأول بموقف السلطات العثمانية من انتقال السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة، واختص المبحث الثاني بالحديث عن تأثير الانتقال على العلاقات السنوسية الأفريقية، أما المبحث الثالث فكان بعنوان تأثير الانتقال في الصراع السنوسي الفرنسي، وقد اعتمدنا في كتابة هذا البحث على المنهج التاريخي القائم على التحليل والنقد والمناقشة من أجل الوصول إلى النتائج المرجوة.

استند البحث على العديد من المصادر والمراجع المتنوعة أبرزها كتب أحمد الشريف (الدر الفريد الوهاج)، و(الكوكب الزاهر)، و(الانوار القدسية)، وكتاب السيد صادق العظم (رحلة في صحراء إفريقيا)، وبعض الكتب المترجمة مثل (الحواليات الليبية) لشارل فيرو، وكتب الرحالة مثل جيمس هاملتون، والمؤرخون الأجانب أمثال دوفيرييه، وتريو، ورين، وكتب الطيب الأشهب: (السنوسي الكبير)، و(المهدي السنوسي)، و(برقة الأمس واليوم)، بالإضافة إلى عدة رسائل علمية أهمها أطروحة الدكتور محمد محمود عبيد الله الموسومة تحت عنوان (برقة وتجارة القوافل خلال القرن التاسع عشر)، ورسالة ماجستير لعبد السميع عبد الكريم ابريدان، بعنوان (السيد محمد المهدي ودوره في تطوير الحركة السنوسية 1844-1902)، والكثير من المراجع، والبحوث، المدونة في نهاية هذا البحث.

المبحث الاول: موقف السلطات العثمانية من انتقال السنوسية إلى الكفرة:

لمعرفة موقف السلطات العثمانية من انتقال مركز الطريقة السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة، لابد لنا أن نتعرف على طبيعة العلاقة بين الطرفين، فمنذ ظهور الطريقة السنوسية في أواسط القرن التاسع عشر كطريقة دينية لها اتباعها، ومريديها، وهي تحاول أن تتأى بنفسها قدر الإمكان عن مواجهة الحكومة العثمانية، وأن تحافظ على نظامها الداخلي، وألا تتأثر بالأوضاع السياسية المحيطة بها، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن ترتبط بعلاقة متوازنة مع الدولة العثمانية بصفتها دولة الخلافة الإسلامية، حيث عمل السيد محمد بن علي السنوسي على الحفاظ على علاقاته الطيبة مع الولاة المحليين، وممثلي السلطة العثمانية في الأماكن التي انتشرت فيها طريقته.

انزعجت الدول الأجنبية من هذا التقارب بين السنوسية، والسلطات العثمانية، وصنفت تلك الدول السنوسيين كجماعة متعصبة تشكل تهديداً خطيراً على مصالحها في إفريقيا، واخذت تحاول جاهدة أن تمنع هذا التقارب بين السنوسية، والدولة العثمانية، وتحاول أن تبرهن بأن السنوسية ليست خطراً على الدول الأوروبية فقط، وإنما خطراً على الدولة العثمانية أيضاً، (عبيد الله: 2013، 55) في محاولة لفض هذا التقارب بين العثمانيين، والسنوسية، واستغلت في ذلك كتابها، وجواسيسها المستترين في شكل مستكشفين، ورحالة، ومن أبرزهم المستكشف الفرنسي (هنري دوفيرييه) الذي يقول إن السنوسية قوة مهيبة، وخارجة عن القانون، وتقيم العدل بنفسها وفق رسائل فقهية، دون أن يتجرأ على معارضتها أحد، حتى من السلطات العثمانية، (Henri Duveyrier: 1884, 11) وكذلك لويس رين الذي يقول أن الحركة السنوسية هي حركة معادية لأي دعوة إلى التقدم، حتى ولو كانت الدعوة آتية من ملك مسلم، وإن كراهيتهم للأتراك لا تقل حدة عن كراهيتهم للأوروبيين، (Louis Rinn: 1995, 510)

الجدير بالذكر إن الوالي العثماني في طرابلس الغرب (علي أشقر باشا) وفي بدايات ظهور السنوسية كان يكرم الشيخ محمد بن علي السنوسي، وكان يعتمد على السنوسية، ونفذها خاصة في دواخل برقة، واعترفت الدولة العثمانية للسيد محمد بن علي بالزعامة، والإمارة، لدرجة منحت الدولة العثمانية فرمانات سلطانية للسنوسيين بإعفائهم من الضرائب، وفي عام 1855م، وأثناء إقامة السيد محمد بن علي في العزيات منحه السلطان عبد المجيد الأول (1839-1861م) لقب الأمير المستقل بإمارته، وظل الولاة العثمانيين يخطبون ود السيد محمد بن علي السنوسي حتى وفاته في 1859م في الجغبوب. (شكري: 1948، 76)

بالرغم من محاولات السلطات العثمانية لاكتساب ود السيد محمد بن علي السنوسي إلا إنه ظل على حيطة وحذر، وفضل عدم الاقتراب منها كثيراً، وحملها مسؤولية ضياع بعض الأقطار الإسلامية التي كانت تحت سلطتها، وبما لحق بها من أذى، والتهاون في الدفاع عنها، وسقوطها في أيدي المستعمرين الأجانب، (شكري: 1948، 76) والتي كانت بلاده الأم الجزائر على رأسها.

ربما كان السبب الرئيسي من نفور السنوسيين من السلطات العثمانية اعتقاد السيد محمد بن علي السنوسي، ومن بعده السيد محمد المهدي في أن العثمانيين ليسوا أهلاً للخلافة، وإن الخلافة يجب أن تؤل إلى أيدي العرب، وتحديدًا إلى سلالة آل البيت النبوي الشريف، لا إلى سلاطين آل عثمان، (عمارة: 46) ولكن لم يكن السيد محمد بن علي السنوسي، ولا خليفته ليصرحوا بذلك علانية حتى لا يتأثر مشروعهم الإصلاحي بسبب إثارة السلطات العثمانية ضدهم، (ابريدان: 2014، 65) ومن جهة أخرى اشتداد موجة المعارضة في الحواضر الإسلامية مثل الاستانة، والقاهرة، ومكة (شكري: 1948، 76) للسيد محمد بن علي السنوسي لمناذاته بفتح باب الاجتهاد، والذي اعتبره البعض ابتداءً، مما دعى بعض الساسة العثمانيين لاستخدام ذلك في معارضة السيد محمد بن علي السنوسي، والحد من نشاطه.

عند تولي السيد محمد المهدي أمور الطريقة السنوسية، سار على نهج والده في علاقته مع الدولة العثمانية، واتخذ من الحياد مبدأً له، وفي المقابل كانت السلطات العثمانية ترى في مهادنة الطريقة السنوسية، ومساندتها بما يخدم مصالحها أمراً ضرورياً، خاصة في ظل ظهور الأطماع الأجنبية مع نهاية القرن التاسع عشر. (زيطة: 2021، 54) في حين أن السيد محمد المهدي لازال على نهج والده وهذا ما يؤكد المؤرخ لوثرروب ستودارد حيث يقول إن السلطان عبد الحميد حرص على استمالة السيد المهدي غير إن الأخير كان دائماً ما يقول: "الترك والنصارى إني أقاتلهم معاً وأضربنهم ضربة واحدة" (ستودارد: 1973، 299)

في بداية عهد السيد محمد المهدي السنوسي، وفي أواخر أيام السلطان عبد المجيد الأول (1839-1861م)، توترت العلاقة بين السنوسيين والسلطات العثمانية بسبب ما أظهره السلطان من تقليل لشأن السيد محمد المهدي مما دعى الأخير إلى هجر السلطان أي عدم الدعاء له بالرحمة والمغفرة، وربما كان تغير سياسة السلطان بعد وفاة السيد محمد بن علي السنوسي بسبب صغر سن السيد محمد المهدي، والشك في قدرته على مواصلة الطريق خلفاً لوالده. (شكري: 1948، 77)

كانت السلطات العثمانية آبان تولي السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م) سدة الحكم تخشى من الحركات الدينية خوفاً من تحولها إلى حركات سياسية قد تحاول الانفصال عن السلطة العثمانية، خاصة في ظل فقدانها لمصر، وتونس، والجزائر، وكثرة شكاوي الأوروبيين لدى الاستانة، وتخوفهم من السنوسيين مما زرع الشك، والريبة في نفس السلطان عبد الحميد الثاني، (الدجاني: 1967، 204) الأمر الذي دعاه إلى اختبار مدى ولاء السيد محمد المهدي له، فطلب منه إرسال نجيدات من برقة لمساندة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا عام 1877م (شكري: 1948، 78) إلا إن السيد محمد المهدي أخذ قراراً بعدم إرسال أي قوة لمساندة العثمانيين، مما أظهر للسلطان عبد الحميد قوة السيد محمد المهدي، وزاد من خوفه وحرصه للوقوف على طبيعة الطريقة السنوسية، وفي المقابل حرص السيد محمد المهدي على التعامل بدقة مع كل المتغيرات التي قد تحصل نتيجة رفضه مساندة الدولة العثمانية، وتجنب غضبها الذي قد يؤثر على برنامجه الإصلاحي في نشر الإسلام. (ابريدان: 2014، 69)

ازدادت شكوك العثمانيين بعد رفض السيد محمد المهدي تقديم المساعدة التي طلبت منه مما دعا السلطان عبدالحميد الثاني إلى إرسال بعثة عام 1886 م برئاسة رشيد باشا حاكم بنغازي يرافقه صادق مؤيد العظم أحد ضباط حرس السلطان عبد الحميد إلى مقر السنوسية في الجغبوب للوقوف على طبيعة الطريقة السنوسية، ولكن هذه البعثة رجعت راضية لما وجدته من حسن استقبال وحفاوة من السيد المهدي، والمحيطين به، ومن أبرزهم الشيخ محمد ظافر المدني، وهو مستشار السلطان عبد الحميد في شمال أفريقيا، والذي لعب دوراً فعالاً في تسوية المشاكل بين الطرفين. (عبيدالله: 2013، 59)

في حرب الدولة العثمانية مع اليونان 1897 م حول جزيرة كريت فيما يعرف بحرب الثلاثين يوماً، سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات، وقد كتب على الاستمارات المعدة لجمع التبرعات عبارة (إعانة جهادية)، وبلغ مجموع التبرعات قرابة (مئة ألف فرنك). (الصلابي: 2017، 83)

من ناحية أخرى يمكننا القول إن أي نزاع يحدث بين القبائل، والسلطات العثمانية، يعد نزاعاً بين السنوسية، والسلطات العثمانية، لأن هذه القبائل هي العمود الفقري للطريقة السنوسية، فهي تمثل الشعب الذي تحكمه الطريقة السنوسية أو بالأحرى تدبر شئونه، وتراعي مصالحه، ومن الطبيعي أن تتحاز له في حالة وقوع نزاعاً ما، عوضاً على أن النزاعات التي تقع بين السلطات العثمانية، والقبائل عادة ما تكون الطريقة السنوسية طرفاً فيها، فمثلاً عملية قتل عبد الرحمن القاضي الملقب بالكاتب (مدير البراعة) الذي قتله أفراد من قبيلة البراعة في نهاية 1894م، نتيجة تعرضه للرجل الفارسي (الميرزا موسى خان) (بازامة: 1994، 400) الموصى به من السيد محمد المهدي، عند خروجه من الجغبوب، والقبض عليه لصالح السلطات العثمانية، الأمر الذي اعتبرته قبيلة البراعة شديدة الولاء للسنوسية تحدياً سافراً ليس للسنوسية فحسب، وإنما للقبيلة في حد ذاتها، (بازامة: 1994، 401) ولهذا السبب وقفت هذه القبيلة في خندق واحد مع السنوسية، ضد الدولة العثمانية وتحملت وزر ما فعلته لحالها.

على ما يبدو إن أي نزاع يحدث بين الدولة العثمانية، والقبائل في أي مكان في برقة، يمكنه أن يؤثر سلباً على أهداف، وقواعد الطريقة السنوسية، وذلك بسبب ارتباط القبائل ببعضها البعض، وإن رجال الطريقة السنوسية هم أنفسهم رجال القبائل، أو على الأقل يرتبطون بهم بصلة القرابة، والمصاهرة، وغيرها من العلاقات الاجتماعية كالعهود، والمواثيق، التي تربط القبائل ببعضها البعض، وتجعلها ملزمة بالوقوف صفاً واحداً في وجه أي اعتداء مهما كان نوعه، وهذا ما يجعل أي حدث يقع في الشمال ما بين القبائل، والسلطات العثمانية، يمكن له أن يؤثر على العلاقة بين القبائل، والسلطات العثمانية في الجنوب، وما يؤكد قولنا هذا هو ما كتبه المؤرخ علي عبد اللطيف أحميده حيث يقول: "إن القبائل سيطرت على دواخل الولاية في القرن التاسع عشر وحافظت على استقلالها من خلال تحالفات تسمى الصفوف، هذه الصفوف ظهرت كأحلاف قبلية وفلاحية تبرز في فترات الصراع والحروب إما في مواجهة الدولة، أو أي صف خصم، أو غازي". (أحميده: 1998، 83)

كذلك فإن الأطراف الأوروبية دائماً ما تستغل هذه الأحداث، وتتسببها للسنوسية، وتتهمها بأنها تسعى للانفصال عن السلطات العثمانية في محاولة لتأليب السلطات العثمانية عليها، والحد من نشاطها بالتماسها لنقاط الضعف التي تؤيد ذلك في أروقة الاستانة. (الأشهب: د.ت، 26).

من المعروف عن السنوسية والتمثلة في زعمائها إنها كانت تنتهج مبدأ التسامح، والعفو، وتوصي اتباعها بذلك، ومن أمثلة ذلك قول السيد محمد المهدي لأصحابه ومبعوثيه: "لا تحقرن أحداً لا مسلماً، ولا نصرانياً، ولا يهودياً، ولا كافراً، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمتة". (العسكري: 2017، 8).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية في هذه الفترة، أي أواخر القرن التاسع عشر، كانت تمر بمرحلة خطيرة من التفكك، والانحيار، والمتتبع لتاريخ هذه الفترة يلاحظ قيام العديد من الثورات، والانقسامات التي كان يقودها المناوئين لحكم الأتراك، إما بسبب الضرائب التي كانت تتقّل كاهل الأهالي أو لأسباب سياسية أخرى، لذا تميزت هذه الفترة في أيالة طرابلس بتعدد الولاة

الذين تجاوز عددهم الثلاثين والياً منذ نهاية الحكم القرمانلي حتى بداية القرن العشرين وقصر مدة حكمهم، (زيادة: 2024، 96) وأضف إلى ذلك أعوام المجاعات، وسنوات الجفاف، التي تعرضت لها البلاد في كثير من الأحيان، لعل أشدها تلك التي وقعت عام 1871-1872م، والتي أسدت كل أنواع المحاصيل. (نيقولا: 2024، 99).

نستنتج مما سبق أن الأهالي لم يكن باستطاعتهم تحمل مزيداً من الظلم، والتسلط، خاصة إنهم يلاحظون ضعف الدولة العثمانية، وعجز أجهزتها على تسيير أمور البلاد، وإن السيل قد بلغ الزبي كما يقولون، لذلك لم يتركوا فرصة للتمرد على السلطات العثمانية، إلا واغتموها، ومن ناحية أخرى فإن السيد محمد المهدي كان حريصاً على التوفيق ما بين الأهالي، والدولة العثمانية، بالرغم من عدم ولائه المطلق لها، والسبب في ذلك حسب رأي الباحث، إنه كان يرى أن حكم الأتراك أفضل بكثير من حكم الأوروبيين، والذين ينتهزون الفرصة للإيقاع بين الأهالي، والدولة العثمانية من جهة، وفض الشراكة بين السنوسية، و العثمانيين من جهة أخرى، وهذا الأمر لا ينطبق بشكل كبير إلا على برقة بسبب نفوذ السنوسية المنتشر بين قبائلها لدرجة السيطرة على هذه القبائل، وامتنالها لأوامر السنوسية، حتى وإن كانت في صالح العثمانيين، ويدعم هذا الرأي ما يقوله بعض المؤرخين في أن الحال في برقة كان أفضل بكثير قياساً بالمناطق الغربية في الإيالة، وذلك بسبب التعايش المرحلي بين السلطات العثمانية، والطريقة السنوسية، والمتمثلة في السيد محمد المهدي، والذي حتمته قوة الظروف المحيطة بهم آنذاك، (زيادة: 2024، 115) وهذا ما يؤيده البروفسور علي عبد اللطيف حميده حيث يصل إلى نتيجة مفادها أن ظهور حركة دينية اجتماعية منافسة لحكومة الولاية في برقة، دعم استقلال القبائل في برقة، وجعلها أكثر حرية من مثيلاتها في الغرب الليبي، (أحميده: 1998، 111) ويرى نفس الكاتب أن نجاح السنوسية يرجع إلى التكيف مع التركيب القبلي المعقد، والعلاقات المتطورة المتمثلة في التحالفات بين مكونات هذه القبائل في برقة، (أحميده: 1998، 116) وهذه التحالفات التي أنشئت هذه القبائل المسلحة، حسب رأي الباحث ساهمت بشكل كبير في شد أزر الطريقة السنوسية ونجاحها، أي أن المصلحة بين السنوسية والقبائل كانت متبادلة.

كل هذه الأحداث حصلت قبل انتقال السيد محمد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة، والتي يبدو إنها كانت من الأسباب الدافعة إلى هذا الانتقال خاصة في ظل تزايد الضغوط العثمانية، فقد أرسل السلطان عبد الحميد مبعوثاً سرياً يدعى عصمت بك إلى بنغازي، ومنها إلى الجغبوب، وألتقى بالسيد محمد المهدي، ويرجح بعض المؤرخون إن هذا اللقاء كان لاستدعاء السيد محمد المهدي للإقامة في الاستانة، (الدجاني: 1967، 210) الأمر الذي جعل مغادرة الجغبوب واجباً تستلزمه مصلحة الطريقة السنوسية لإتباع نهجها الديني الداعي إلى استمرار نشر الدين الإسلامي، والابتعاد عن المناكفات السياسية التي تفرضها الأحوال المحيطة بالطريقة السنوسية آنذاك.

رغم ذلك كان السيد محمد المهدي قد أرسل مكتوباً للسلطان عبد الحميد الثاني، وآخر لمتصرف بنغازي، فور مغادرته للجغبوب، (الشريف السنوسي: 2022، 185) وهذا ما يؤكد إنه كان قد بيت النية على الارتحال، وأن إبلاغه للسلطات العثمانية كان من باب العلم بالشيء، وليس للتشاور في أمر الانتقال، أو ربما يكون قد تم التشاور علي الانتقال في خلال زيارة المبعوثين العثمانيين للسيد محمد المهدي السابقة للانتقال كزيارة صادق مؤيد العظم 1886م، وزيارة رشيد باشا مبعوث السلطان العثماني 1889م، وإنه تم الاتفاق على ذلك للحد من الاطماع الفرنسية في الجنوب البرقي.

على كل حال فإن السنوسيين كانوا يبعثون هم أيضاً المبعوثين الخاصين إلي الباب العالي مثل السيد عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي، الذي تمكن من الحصول على الفرمانات الخاصة بإعفاء الزوايا من الضرائب، والسماح للسنوسية بجني نقود اتباعها، وكذلك الشيخ عبد العزيز العيساوي مبعوث السيد محمد المهدي، الذي أتى بالعديد من الامتيازات، وحق الحمى المقدس للزوايا السنوسية في كل ربوع الولاية. (زيطة: 2021، 61)

صحب السيد عبدالعزيز العيساوي ابن أخيه الشيخ محمد الأخضر العيساوي أحد مؤرخي السنوسية، ولقوا كل حفاوة وترحيب، ونجح السيد عبد العزيز في مهمته نجاحاً كبيراً، ورجع محملاً بالهدايا من السلطان للسيد محمد المهدي من بينها عدد عشر نسخ

مطبوعة من صحيح البخاري إضافة لساعة ثمينة، ولم يلبث الباب العالي أن أصدر أوامره إلى متصرفية بنغازي، وولاية طرابلس، بضرورة الاهتمام، والرعاية بالزوايا السنوسية، وفي 3 نوفمبر 1895م، أرسل إبراهيم درويش باشا (ياور حضرة السلطان) خطاباً للسيد محمد المهدي يخبره بالإجراءات التي اتخذها الباب العالي في هذا الشأن. (الشريف: 2008، 272).

في 2 ربيع الآخر 1313هـ/الموافق 22 سبتمبر 1895م أرسل باشا كاتب قصر يلدر السلطاني برسالة طويلة إلى السيد محمد المهدي مضمونها اظهار شأن الخلافة الإسلامية الكبرى، ووجوب طاعتها، والتحذير من مساعي الدول الأجنبية، والأعمال التنصيرية، في ديار السودان، وضرورة الاتحاد، وتوحيد الجهود لرد هذا الغزو الأجنبي عن ديار الإسلام، ويثني في آخر الرسالة على جهود السيد محمد المهدي وتمسكه بمبادئ الإسلام والسعي لنشره ونصرته. (شكري: 1948، 87).

لم يمض وقتاً طويلاً على استقرار السنوسيون في الكفرة، حتى وصل إليهم صادق مؤيد العظم قادماً من الاستانة، وبرفقته عدد كبير من وجهاء بنغازي أبرزهم منصور الكيخيا، وسليمان أمينة، والسيد محمد بلقاسم العيساوي، وعبد العزيز العيساوي، والسيد السنوسي بو مدين، والشيخ شعيب العجائبي، (الأشهب: 1953، 64) يرافقهم أربع جنود تم اختيارهم بعناية، (العظم: 1988، 36) بعد تدريبهم على إصابة الهدف بدقة ولكننا نعزي ذلك لتخوفه من مخاطر الطريق، وليس لتخوفه من السنوسية، فقد كانت زيارته هذه رداً على زيارة السيد عبد العزيز العيساوي موفد السيد محمد المهدي للباب العالي، وكان السيد صادق مؤيد العظم يحمل معه الكثير من الهدايا النفيسة والكتب الخاصة كهدايا للسيد محمد المهدي، حاملاً معه أمر سلطاني بالاعتراف بإمارة السيد محمد المهدي على واحات الكفرة، وما حولها. (المصري: 1947، 27).

في أثناء وجود الصادق مؤيد العظم في بنغازي، والذي كان يستعد للذهاب إلى الكفرة، علم بوجود نزاع قد حدث بين قبيلة الزوية في أجخرة، وعساكر يتبعون الحكومة العثمانية، بسبب تحصيل الضرائب مما أدى إلى تبادل إطلاق النار، وسقوط ضحايا من قبيلة الزوية، وجرى من الحكومة، وتم على أثر ذلك إرسال كتيبتين عسكريتين، ومدفعان، والكثير من الذخيرة، إلا إن الحكومة لم تتحصل على الإبل اللازمة لنقل المعدات، بسبب موسم الحرث الذي تشغل فيه الإبل، فتكفل بحل النزاع بحكم أنه يقع في الطريق المؤدية للكفرة، وبالفعل تمكن من فض النزاع برضى قبيلة الزوية، التي تضرعت إلى الله بإطالة عمر ولي النعم، كما يقول صادق مؤيد العظم. (العظم: 1988، 173).

سر السيد صادق مؤيد العظم بما رأى من حماس السنوسيين، ونشاطهم، وولائهم للخلافة الإسلامية، المتمثلة في الباب العالي، وبث الدعوة لطاعة السلطان، وتعبيراً على ذلك أنشأ قصيدة يمدح فيها السيد محمد المهدي جاء في مطلعها:

يا ابن السنوسي يامن شمسك سطعت *** بدرأ أضواء قلوب البدو والحضر

لو أرسل الله بعد المصطفى رسلاً *** لكنت أول مبعوث إلى البشر. (شكري: 1948، 88)

ولقد رجع بعد إتمام زيارته إلى الباب العالي محملاً بالهدايا التي بعثها السيد محمد المهدي للسلطان عبد الحميد الثاني مع الدعاء له.

يتضح من التقرير الذي قدمه السيد صادق مؤيد العظم لقصر (يلدر) (عبد الرازق: 2022، 32) السلطاني أنه أتم مهمته وسلم الرسالة الخاصة التي تسلمها من رئيس كتاب الديوان السلطاني إلى السيد محمد المهدي السنوسي، وقال إن السيد محمد المهدي يكن لحامي الخلافة الإسلامية، والدولة العلية، الإخلاص وفرط المحبة، مع الدعاء له بطول العمر، وعلو الشأن، وأعرب السيد صادق العظم في تقريره عن شكر جميع مشائخ القبائل الذين قدموا الولاء والطاعة للسلطان، على هذه اللفتة الكريمة تجاه السيد محمد المهدي، ويختتم تقريره بأنه نصب أحد العلماء اللذان كانا معه في الكفرة باعتباره أول مأمور عثماني يصل إليها. (العظم: 1988، 169).

الجدير بالذكر وقبل مضي ثلاثة أشهر من انتقال السنوسية للكفرة أن السلطات العثمانية المتمثلة في المتصرف طاهر باشا متصرف بنغازي، قررت إقامة مديرية بواحة الكفرة استناداً إلى موافقة سابقة كانت قد صدرت من الباب العالي للمتصرف

المتوفي رشيد باشا، وقد عين لهذه المديرية (مجد كرد) مديراً براتب شهري قدره ألف قرش، (بازامة: 1994، 406) لكن تقرير صادق مؤيد العظم بعد زيارته للكفرة أوصى بصرف النظر عن ذلك لسببين حسب قوله الأول: أن ذلك سيثير الشكوك لدى السيد محمد المهدي بأن الحكومة العثمانية تتعقبه، والسبب الثاني: أن أحداث أجخرة الأخيرة ستسبب عدم الوفاق بين قبيلة الزوية، وموظفي الحكومة، وتسبب لهم المشاكل، هذا غير التكاليف الباهظة التي تترتب عن ذلك دون وجود مرود ثابت. (العظم: 1988، 172)

تأسيساً على ما سبق ذكره، فإن العلاقات العثمانية السنوسية، والتي شابها الحذر من الطرفين، إلا أنها أصبحت على درجة كبيرة من الوفاق، بعد تحول السنوسية للكفرة، فعمل الضغوطات التي تعرضت لها الطريقة السنوسية سواء من الدول الاستعمارية التي كانت تحاول الإيقاع بينها، وبين العثمانيين، أو من السلطات العثمانية ومشاكلها مع القبائل الموالية للسنوسيين، والذي قد يسبب حرجاً كبيراً لها فهي لا تستطيع مواجهة العثمانيين علناً، ولا تستطيع التخلي عن القبائل بحكم الولاء الذي تحمله تلك القبائل للسنوسيين، هذه الضغوطات هي التي حملت السنوسيون على مغادرة الجغبوب جنوباً إلى الكفرة، وإي كان الأمر فسواء أن السنوسيون انتقلوا إلى الكفرة برأي أحادي، أو باتفاق غير معلن مع السلطات العثمانية فأن تأثير الانتقال كان حسناً على الطرفين. فالسنوسيون وجدوا البراح المناسب لانتشار طريقتهم في هذه المساحة المفتوحة على عدة منافذ كالسودان، وتشاد، وما وراءهما من ممالك، وكذلك مصر، عوضاً عن الصحراء الليبية الشاسعة، وما تمتعت به السنوسية من قبول لدى قبائلها خاصة إن السنوسية نجحت إلى حد كبير في منع الاقتتال بين هذه القبائل التي كانت متناحرة، واستطاعت المؤاخاة بينها، إضافة إلى نشر الدين الإسلامي بين غير المسلمين، وفرض الأمن، والأمان، مما جعلها محل قبول لدى جميع الأطراف، خاصة إن قبائل الجنوب كانت أقل عدداً في مجموعها، وأن قبيلة الزوية الكثيرة العدد الشديدة الولاء للسنوسية كانت تفرض هيمنتها على جميع القبائل، مما جعل السنوسية أكثر تمكناً، وأقوى سيطرة عنها في الجغبوب والشمال بصفة عامة.

العثمانيون الذين خبروا مقدرة السنوسية في السيطرة على قبائل الشمال، وأدركوا تمام الإدراك بأن السنوسية قد سيطرت تماماً على قبائل الجنوب البرقي إضافة إلى القبائل التي لها امتداد صوب جنوب الصحراء، والسودان، وتشاد، كالطوارق، والتبو، مما قد يساعد العثمانيون في الحد من زحف الفرنسيين على مناطق الجنوب الليبي، والممالك المتاخمة له في السودان، وتشاد، خاصة إن هذه الفترة أحتدم فيها الصراع بين ثلاث قوى رئيسية، هي قوة اليقظة العربية، وقوة الدولة العثمانية، وقوة الاستعمار الغربي، (الدجاني: 1971، 57) وكلاً منها كان يحاول فرض سيطرته، وزيادة مناطق نفوذه، وكانت الحكومة العثمانية في أحوج ما يكون لاحتواء الطريقة السنوسية، وما في كنفها من القبائل الليبية، وغير الليبية حتى يتسنى لها مواجهة القوى الاستعمارية المتكاملة على المنطقة، والتي تسعى لبث الفتنة بينها وبين الطريقة السنوسية، وتحاول فض الشراكة بينهما، ورغم أن أحمد راسم والي طرابلس (1882-1896 م) لم يكن متحمساً للسنوسية غير أن السلطات العثمانية نشطت أبان تلك الفترة في التعرف على الطريقة السنوسية، وتقوية العلاقات معها، وقد أنشغل بها السلطان عبدالحميد انشغالاً خاصاً في إطار دعوته لسياسة الجامعة الإسلامية، لذا نجد أن الاستانة كلفت رشيد باشا متصرف بنغازي الذي قام بدور كبير في تحسين العلاقات مع السنوسية، وأن الصدر الأعظم سعيد نامق أوصى في رسالة له لأحمد راسم بضرورة تحسين علاقته بالسنوسية، والحرص على حسن معاملتها، ويبين له حرص السلطان على معرفة دوافع السنوسية في الانتقال إلى الكفرة. (الدجاني: 1971، 137) ولعل كل ما سبق ذكره من تحسين العلاقات السنوسية العثمانية، والتواد المتسارع بشكل كبير بينهما، ومحاولة احتواء كل منهما للآخر، إلا أن السيد محمد المهدي لم يتوانى في تعزيز العلاقات السنوسية الأفريقية، وتحسينها ليس على الصعيد السياسي فحسب، وإنما على كافة الأصعدة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، وهذا ما سنتعرف عليه في المبحث التالي.

المبحث الثاني: تأثير الانتقال على العلاقات السنوسية الأفريقية:

بداية يعزى بعض المهتمين بالعلاقات العربية الأفريقية، انحسار العلاقات العربية الأفريقية، لمصلحة العلاقات الأوروبية الأفريقية، في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بسبب التوسع الأوروبي والكشوفات الجغرافية في إفريقيا، إلا أن الإرث

العربي في مكونات الثقافة الأفريقية ظل فاعلاً طوال هذه المرحلة، وإن العلاقات العربية الأفريقية اتسمت بالازدهار المشترك، في حين عرفت العلاقات الأوروبية الأفريقية بالنزف المادي، والقهر البشري، وخير دليل على ذلك اقتسام دول القارة بين القوى الاستعمارية، الأمر الذي أدى إلى استنزاف ثرواتها واستغلال مواردها. (بغداد: 2013، 23).

ربما هذا هو ما أدى إلى تداخل العلاقات العربية الأفريقية إضافة إلى عوامل الجوار، والبيئة الواحدة، والمعاملة الحسنة، خاصة مع ليبيا التي ربطها بجيرانها الأفارقة أوامر القربى، والمصاهرة وحسن الجوار، إضافة إلى تجارة القوافل، وطرقها المتعددة التي تمر عبر ليبيا وترتبط هذه الدول بساحل البحر المتوسط، زد على ذلك موجات هجرة الليبيين إلى تشاد التي اتسم بها القرن التاسع عشر مثل هجرة أولاد سليمان 1842م، وقبيلة المغاربة 1861م، نتيجة للبيئة الطاردة التي فرضها عليهم الاتراك العثمانيين تلك الفترة. (الحندي: 1983، 17-18)

لا نريد الخوض في تاريخ العلاقات الليبية الأفريقية، فهي قد تبتعد بنا عن موضوعنا الأساسي، ألا وهو تأثير انتقال السنوسية إلى الكفرة لاقتربهم من الحدود الأفريقية التي تشمل السودان، وتشاد والنيجر، على العلاقات بينهم، علماً بأن العلاقة كانت حسنة، خاصة مع مملكة وادي، وترجع إلى عهد المؤسس محمد بن علي السنوسي، منذ أن كان في الحجاز، وكيف تحسنت العلاقة في عهد السيد محمد المهدي، وهو لازال في الجغبوب، حيث كان السنوسيون يشترون العبيد ليس للتجارة وإنما لتعليمهم مبادئ الدعوة الإسلامية ومن ثم عتقهم وارسالهم إلى أوطانهم لنشر الدين الإسلامي بين إخوانهم، كما بذل السنوسيون جهوداً عظيمة لإدخال قبيلة بيلي التي تسكن جبال عنيدي الجبلية شرق بوركينا، للإسلام وكانت لاتزال على الوثنية. (شاك: 1973، 51) ولعل انتقالهم للكفرة ما كان إلا لتحسين هذه العلاقة، وتقويتها، خاصة إنها تتعلق بنشر الدين الإسلامي، علاوة على الدوافع التجارية، وحماية طرق القوافل، زد على ذلك الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي الزاحف نحو المنطقة التي يعتبرها السنوسيون امتداداً لهم.

انصب تركيز السنوسية على السودان الأوسط إذ يؤكد بعض المؤرخون إن السنوسيون لم يزورا شرق السودان، كما لم يبعثوا بأي رسل إلى هناك، وكان تركيزهم على دار فور، وكانت روابطهم دائماً مع وسط السودان، وربما كان ذلك بسبب سيطرة المهدي السوداني الذي دعى السيد محمد المهدي السنوسي ليكون خليفته الثالث، وقوبلت هذه الدعوة بالاحتقار، الأمر الذي باعد بين الطرفين. (تريمنجهام: 2001، 229) وقيل أنه قال للمهدي السوداني إننا لا نساوي التراب الذي كان يطأه سيدنا عثمان، وأوعز لملك وادي أن لا يحرك ساكناً مع المهدي السوداني، فلا يناصره، ولا يحاربه، إلا إذا جاءه غازياً، (شكير: 2007، 151) بل إن الأمر كان قد تعدى ذلك حيث طلب السيد محمد المهدي من الشعوب الإسلامية خصوصاً تلك المجاورة للسودان إلى أن تمتنع عن تأييد مدعي المهدي محمد أحمد الذي لم يكن إلا مخادعاً كاذباً. (أرسلان: 2011، 53).

لعل أبرز السودانيين المنتمين إلى الطريقة السنوسية والذي يجب أن نذكره هو الشيخ الكبير عبد الله السناري (السنّي) الذي انطلق من بلدته سنار قاصداً الحج، والتقى بالسيد محمد بن علي السنوسي بعد أن تعلموا على يد الشيخ أحمد بن إدريس، (الشريف السنوسي: 2022، 35) وأشار إليهما بالذهاب إلى ليبيا، ونشر الدين الإسلامي، وتبقيته من الشوائب التي علقت به، (جبران: 2006، 32) وقد لعب هذا الشيخ دوراً هاماً خاصة في الجوانب الثقافية.

الجدير بالذكر إن مناطق تشاد المتاخمة لليبيا قد تعرضت للغزو الفرنسي عام 1899م تحديداً بحيرة تشاد، وما جاورها من ممالك، والتي كانت تحت سيطرة الأمير رابح فضل الله (القشاش: 1997، 75) الذي تمكن من توسيع سلطانه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، فأحتل مملكة باقرمي عام 1893م، وغزا مملكة برنو 1894م، ورفع شعار المهدي حتى وإن لم ينظم للمهدي السوداني بصورة مباشرة، ولكن فرنسا استطاعت بمساعدة التحالف الذي شكلته من السلاطين، والأمراء الفارين أمام رابح فضل الله من القضاء عليه برغم مقاومته العنيفة لهم، حيث سقط شهيداً في 22 أبريل 1900م، (الحندي: 1983، 77) وإنهاء مقاومة ابنه فضل الله من بعده 1901م، مما فسح المجال أمام فرنسا للسيطرة على الإقليم عسكرياً. (بن مبروك: 2019، 75).

منذ وصول السيد محمد المهدي السنوسي إلى الكفرة، عمل جاهداً في الاتصال بجيرانه الأفارقة، ومهد الطرق التي تتصل بهم، وحفر الآبار على طول الطريق، لتوفير موارد المياه للقوافل، والتجار، مثل بئر بشرى، الذي كان قد قام بحفره الشيخ محمد عبد الشفيق، بأمر من السيد المهدي عام 1864م، أما بئر السارة فقد أمر السيد محمد المهدي بحفره أثناء سفره إلى السودان، وقد تبرع بتكاليف الحفر السيد سالم باشا المحيشي، أحد وجهاء مدينة بنغازي، (الأشهب: 1946، 237) ويقال أن المجاهد صالح بو مطاري أشرف على حفر هذه البئر، (بومطاري: 2020، 47) وبعث السيد محمد المهدي الرسائل للمالك المجاورة لتقوية العلاقات السياسية، والتجارية، خاصة مع مملكة وادي التي كانت فرنسا تسعى للسيطرة عليها، تحت الظروف السياسية المتوترة التي كانت تمر بها المنطقة، محط أنظار الدول الاستعمارية، والتي ترمي إلى اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، أو ما عرف بالمسألة الشرقية التي هي عبارة عن خلاف غربي- غربي، بشأن قضية شرقية كان من أهم عناصر هذا الخلاف تحريم تجارة الرقيق، (شطب: 2011، 55) التي كانت السنوسية أحد المتهمين بها.

لم تكن مهمة السنوسيون سهلة على الإطلاق، فقد كانت المنطقة مضطربة داخلياً وخارجياً، ففي الداخل كان رايح فضل الله يسقط المملكة تلو الأخرى، مما دعى السيد محمد المهدي السنوسي للاتصال به ودعوته إلى التكاتف من أجل صد الغزو الصليبي، (القشاط: 1997، 76) وخارجياً اصطدمت أهداف السنوسية التي يتصدرها نشر الإسلام في أفريقيا خاصة في السودان، بمساعي الدول الأوروبية لنشر الدين المسيحي عن طريق القادة، والمبشرين المنتشرين على شكل رحالة، ومستكشفين، حيث يؤكد ذلك العديد من المؤرخين مثل عباس محمود العقاد حيث يقول: "ما من قائد أو رائد أرسلته مصر بإيعاز من الدول الأجنبية إلا كان من رواد التبشير بالمسيحية". (العقاد: د.ت، 62).

كان السيد محمد المهدي واخوانه يخشون من أن يقضي مجيء الاستعمار الفرنسي لمناطق نفوذ السنوسية المتمثلة في كانم، وبرنو، وبوركو، ووادي، واندي، ووجنقة، وغيرها من المناطق، على ما بنوه في تلك المناطق، وما عملوا من أجله سنوات عديدة لترسيخ مبادي الإسلام، لذلك كان الدفاع عن هذه النواحي واجباً تفرضه العقيدة الإسلامية، وكذلك حقوق الجيرة، عوضاً عن المصالح الاقتصادية التي كان يجنيها الطرفان من بعضهما البعض.

حشد السيد محمد المهدي اتباعه من الليبيين لمقاومة الغزو الفرنسي ذوداً عن الأراضي التشادية حيث أعد العدة في شهر جمادى الآخر من عام 1317هـ / أكتوبر 1899م، وأتجه صوب السودان في جمع غفير بلغ تعداده 1066 شخص، من غير أفراد عائلته، وكبار الإخوان، والكثير من وجهاء القبائل، وما يقدر بحوالي 3800 جمل لنقل الأمتعة والمؤن، ومائة من الخيل، والكثير من البغال، وقد قسمت لكثرتها إلى خمسين ركب، لكل منها مشرف، ولها جميعها خبير واحد، (الأشهب: 1946، 239) حيث نقل مقر قيادته إلى قرو 1899-1902م، وقد اتخذها قاعدة ينطلق منها المجاهدون إلى الأراضي التشادية، وبذلك أصبحت قرو هي عاصمة الدعوة السنوسية وقاعدتها الأممية لمجابهة الفرنسيين.

مما سبق نستنتج إن القبائل الليبية التي هاجرت إلى تشاد، والسودان، فيما مضى قد قويت شوكتها بعد مجيء السيد محمد المهدي إلى قرو، وتعاضدت خلفه لمقاومة الاستعمار الفرنسي جنباً إلى جنب مع أخوتهم التشاديين، والسودانيين، والنيجريين، وغيرهم من الشعوب مثل شعب تيدا في جبال تيبستي الذين نجح السنوسيين في تعليمهم الإسلام بعد أن كانوا مسلمين أسماً (شاكر: 1973، 51) وانطوا تحت قيادة السنوسية، وشكلوا بذلك سداً منيعاً في وجه الاحتلال، سواء في حياة السيد محمد المهدي،

أو حتى بعد وفاته، وتولي السيد أحمد الشريف القيادة، ولم ينته هذا التحالف إلا بقيام الحرب العالمية الأولى 1914م. كان لانتشار الزوايا السنوسية أثر كبير في ربط مناطق الصحراء الكبرى ببعضها البعض، وأصبحت هذه الزوايا ملاجئ للرحالة، والمسافرين، والتجار، وقدمت خدمات جليلة للإسلام بنشره في أواسط أفريقيا، بين الشعوب الوثنية. (قاسم: 1996، 313). قام الفرنسيون بدورهم بمهاجمة الزوايا، بحجة إنها استغلت من قبل السنوسيين، لضرب الفرنسيين ومهاجمتهم، وكذلك وحسب قول ريمون فيرون فإن هذه المنطقة تقع ضمن الصحراء الفرنسية (فيرون: 1993، 19) ولم يكن أمام السنوسيين إلا الوقوف

صفاً واحداً لمواجهة هذا العدوان الغاشم في ظل تخلي الأتراك عنهم، بالرغم من تبعية المنطقة لهم، إلا إنها تبعية أسمية فقط خاصة بين القبائل وتحديدًا قبائل الجنوب، (رايت: 1972، 108) لذلك كانت السلطة الحقيقية التي ألغت وراءها هذه القبائل هي سلطة السنوسيين.

خاتمة القول أن السنوسيون وما في كنفهم من القبائل الليبية التي اجتمعت تحت مسمى الإخوان السنوسيين، وتوحدت مع أخوتهم في الإسلام من قبائل الجنوب كالتبو والقرعان وشعوب الممالك المتاخمة للحدود الليبية كمملكة وادي وبارقي وغيرهما من الممالك، توحدت تحت لواء السنوسية وقيادتها المتمثلة في السيد محمد المهدي وقادته البارزين لصد العدوان الفرنسي، ويرجع الفضل في ذلك للطريقة السنوسية التي رفعت شعار الجهاد وانتقلت إلى أرض المعركة في قرو وعملت على حشد الجهود مستخدمة كل امكانياتها البشرية والمادية ورفعت الروح المعنوية لكل منتسبيها من الإخوان السنوسيين من كل الأعراق بغض النظر عن اصولهم عربية كانت او غير عربية فقد جمعهم الإسلام وانتمائهم للطريقة السنوسية تحت قيادة السيد محمد المهدي واضحى مسمى الاخوان السنوسيون كما يقول السيد محمد الطيب الأشهب بمثابة النسب الجديد الذي يكسب صاحبه صفة العمومية ويخرجه من انتائمه لقبيلة أو بيئة معينة ليجد نفسه في افق واسع لا يعرف الحدود ولا يؤمن بالقيود (الأشهب: 1957، 35) من أجل تحقيق أهداف سامية، ونبيلة، وأولها: نشر الدين الإسلامي، وثانيها الجهاد في سبيل الله، وثالثها الذود عن الأرض، والعرض، وكل هذا ما كان ليتحقق لولا وجود الطريقة السنوسية وقيادتها الحكيمة، والتي أثرت بشكل إيجابي فيمن حولها، ففي منتسبيها الليبيين والعرب أدت روح الجهاد وعززت الجوانب الدينية التي رفعت من مستوى الوعي الديني وتقبل التضحية من أجل الآخرين خاصة المظلومين والمقهورين منهم كما حدث تماماً في الشعوب الأفريقية التي تعرضت للغزو للفرنسي خاصة تلك التي تربطنا بها حدود مشتركة اما عن حديثي الإسلام من الشعوب الوثنية فقد ولدت الطريقة السنوسية لديهم روح الانتماء للجماعة مما دفعهم في الإستماتة في الدفاع عن اوطانهم وذويهم بكل قوة خاصة انهم لاحظوا الفرق الواضح في معاملة الجنس الاسود بين المسلمين والأجانب كما يشير إلى ذلك جيمس هاملتون الذي يقول أن الأوروبي يعرض ضحاياه للخطر أما المسلم فيعلمهم تعاليم الدين الاسلامي، فبرغم اختلاف الألوان إلا انهم يعدونهم جميعاً من مخلوقات الله، وهذه التعاليم حقيقة لا جدال فيها. (هاملتون: 2008، 271).

لعل هذا كان من أهم الأسباب التي سهلت مهمة السنوسية في توحيد الشعوب العربية وغير العربية في جنوب الصحراء، حيث شكل وجود الطريقة السنوسية في هذه الصحراء أتجاهاً دينياً كان له الدور الكبير في توحيد الجماعات الإثنية، والعرقية، تحت لوائها، (عبدالحسين وآخرون: 2021، 162) خاصة في ظل انعدام قوى سياسية فاعلة، وهذا هو ما حول الطريقة السنوسية إلى قوة سياسية، على الأقل في المناطق التي تخضع لها، مما أوجب على السنوسيين ضرورة مقاومة الفرنسيين، وعلى الرغم من الفارق الكبير في العدة والعتاد إلا أن الزوايا السنوسية عملت على تدريب القبائل على استخدام السلاح، استعداداً للدفاع عنها عند زحف الفرنسيين على تشاد عام 1899م، حيث قدرت القوة القبلية المسلحة لأتباع السنوسية بحوالي 54000 ألف مقاتل. (شكري: 1948، 52).

بالتأكيد أن واجب الدفاع عن الدين والوطن، وأيمان السنوسية بضرورة نصرته أخوتهم في الإسلام، ورفع راية الجهاد الذي يعد واجب ديني، وفرض على كل مسلم، ومنهج التبعية المعنوية الذي انتهجه السنوسيون، بضرورة الوقوف صفاً واحداً في وجه المستعمر الفرنسي، الذي يسعى لفرض سيطرته على المقدرات الاقتصادية، بل وحتى المكونات البشرية، ومحاولة تنصيرها، وتكثيف البعث الاستكشافية التي تستتر وراء غايات سياسية استعمارية، كل هذا أدى إلى الاصطدام الذي تجنبتة السنوسية كثيراً، وأدى إلى المواجهة التي كان لابد منها، وهذا ما سنتعرف عليه في المبحث التالي.

المبحث الثالث: تأثير الانتقال في الصراع السنوسي الفرنسي:

في البداية يجب علينا أن نستعرض العلاقات السنوسية الفرنسية في ضوء العلاقات العثمانية الفرنسية بحكم إن ولاية طرابلس تتبع للدولة العثمانية، وأن برقة في أغلب الحالات تتبع ولاية طرابلس العثمانية، وإن انفصلت عنها أحياناً فهي تتبع

السلطات العثمانية أيضاً، وذلك لكي نستطيع تكوين فكرة ولو بسيطة عن طبيعة علاقة فرنسا بالولاية، وبالطريقة السنوسية، ولمعرفة كيف تأثرت هذه العلاقات نتيجة انتقال السنوسية إلى الكفرة تحديداً في الصراع السنوسي الفرنسي.

هذا ما يدفعنا إلى الرجوع إلى الوراء ففي خلال الفترة التي سيطرت فيها الدولة العثمانية على طرابلس حيث نجد أن من عام 1630م إلى عام 1919م تعاقب 53 قنصلاً فرنسياً على إدارة القنصلية الفرنسية في طرابلس مما يؤكد طبيعة العلاقات غير المستقرة بين البلدين مقارنة بغيرهم من قناصل الدول الأجنبية. (Saifelnaser: 2008,32).

لم تكن دواخل ليبيا تعرف ولمدة طويلة، إلا من خلال أعمال المؤرخين، والجغرافيين الإغريق، والرومان، أو من خلال روايات الرحالة العرب، ولم يبدأ الاستكشاف العلمي لها إلا بنهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر بمبادرة الجمعية الإنجليزية (أفريكان إسوسياشن) أو (الجمعية الإفريقية) ولم يستكمل استكشافها إلا في القرن العشرين، (بيشون: 1991، 42) ولقد ظلت فرنسا تنظر إلى الجزء الشرقي من ليبيا الذي يمثل جبال العوينات، وأركنو، والصحراء الليبية خاصة، باعتباره الإقليم الذي لا صاحب له، وهو الإقليم الذي يقع بين الجيوب، والسودان الأنجلو مصري من ناحية، وليبيا ووحدات سيوه والغرافة والداخلية المصرية من ناحية أخرى، (بيشون: 1991، 27) ويصف الفرنسي جاك بيشون واحة الكفرة الواقعة في هذا النطاق بأنها المركز الحضري إذ تشمل زاوية الجوف، وزاوية التاج، وتشغل المقر الرئيسي للسنوسية. (بيشون: 1991، 32).

يذكر الفرنسي جاك بيشون إن انتقال السنوسية إلى الكفرة كان مرده الابتعاد عن الأتراك، والأوربيين، إلا إن قلق السيد محمد المهدي زعيم الطريقة السنوسية من التقدم الفرنسي في وسط أفريقيا دفعه إلى مغادرة الكفرة، والاستقرار في قرو شمال شرق بركو، وعين خليفة له في كانون قبل وفاته في 1902م. (بيشون: 1991، 37) ويذكر فرنسي آخر يدعى جورج أرنود (1917-1987م) يقول إن السنوسية أصبحت قوة روحية خطيرة تحت السياسة الحكيمة للسيد محمد المهدي، الذي نقل مقرها من الجيوب إلى الكفرة، وزاد من قوتها ازدياد المؤمنين بها، والمتعصبين لها، وأضحت مؤسسة تجارية واسعة بحمايتها للقوافل، واستفادت من حقيقة فرنسا، وانجلترا للوصول إلى السودان، حسب قول جورج أرنود، (G.Arnaud: 1925, 187-189) إي أنه أراد أن يقول أن السنوسية، والمؤمنين بها، لم تعد لهم حجة في صد المستعمرين الذين أصبحوا أمر واقع، خاصة أن الدين الإسلامي يفرض عليهم الجهاد ضد المستعمر المغتصب، الذي أستباح أرضهم وأرض أخوتهم في الدين.

لعل التنافس بين الفرنسيين، والإنجليز، وغيرهم من القوى الاستعمارية، ومساراتها المختلفة التي تتغير تبعاً للتحالفات، والاتفاقيات التي تحدثت بين الحين والآخر، يوازي ذلك الضعف التدريجي للإمبراطورية العثمانية التي كانت ليبيا إحدى ولاياتها، والتي ربما شجعت السنوسية أو على الأقل استحسن انتقالها للكفرة لعدة أسباب واضحة: أولاً للسيطرة على القبائل المتمردة على السلطات العثمانية على رأسها قبيلة الزوية، وثانياً لفرض سيطرتها على مناطق الجنوب البرقي خاصة الكفرة، وما جاورها، باعتبار السنوسيين رعايا للدولة العثمانية، وثالثاً وهو الأهم الحد من أطماع فرنسا التي أصبحت تنظر للإقليم المذكور بأنه لا صاحب له، مما أتاح للسيد محمد المهدي السنوسي امتداداً عريضاً ساعده في ذلك إنشاء الزوايا التي وصلت إلى وسط أفريقيا والسنغال، وقد وجدت الطريقة السنوسية في تجار القوافل أنصاراً متحمسين لها، وبالتالي سيطرت على التجارة في دواخل أفريقيا، وساعدها في ذلك العبيد الذين تم تعليمهم في الجيوب، ثم تم عقهم وإرسالهم لبلدانهم الأصلية كمعلمين لنشر الدين الإسلامي. (بيشون: 1991، 38).

عقدت الاتفاقيات والتحالفات الأوروبية ابتداء من مؤتمر برلين في الفترة من 15 نوفمبر 1884- إلى 23 فبراير 1885م، (تشايجي: 1993، 133) ومروراً بالتصريح الأنجلو فرنسي 5-8-1890م، وبالاتفاقية التصحيحية المؤرخة في 14-6-1898م، وإلحاقاً باتفاقية 21-3-1899م، (بيشون: 1991، 74) والرامية جميعها إلى تقسيم أفريقيا الوسطي، والاختلافات التي حصلت حولها بين المستعمرين الأوربيين، والتي أفضت إلى امتداد ممتلكات فرنسا حسب قول وزير خارجيتها آنذاك (تيوفيل

ديلكاسي 1898-1905م) إلى كانم، وباقرمي، وضرورة ضمان الاستيلاء عليهما، والنظر للبلاد الواقعة ورائهما، ويقصد وادي وما يسمى بالهنتزلاند الليبي، (ناجي: 1970، 184) لضمان عدم تهديد مستعمرات فرنسا القريبة منها. (بيشون: 1991، 65-74). كل هذا حصل ما بين الدول الاستعمارية خاصة إنجلترا، وفرنسا، وصراعهما على ترسيم الحدود في ظل الاحتجاجات التركية التي كانت تسعى لمد سلطانها جنوباً وظم منطقة تشاد (الشنيطي: 1951، 27) حيث كانت كل من برنو، وباقرمي، ووداي، وكانم، وبوركو، وتيبستي، تحت نفوذ طرابلس، وبعد اتفاق فرنسا وإنجلترا 1898م، أوضحت تلك المناطق لفرنسا مقابل أن تكون دار فور، وبحر الغزال لإنجلترا، (الدجاني: 1967، 134) وهو ما جعل تركيا تتفق ولو بشكل غير معلن مع السنوسية لمقاومة التسلسل الأوروبي في أفريقيا، خاصة المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية لليبيا، والتي تنشط فيها الطريقة السنوسية مثل كانم، والباقرمي، ووداي، وطرق القوافل المرتبطة بالجنوب الليبي. (بيشون: 1991، 89) وبالجنوب الشرقي الذي تعتبر الكفرة أهم محطاته التجارية، والتي تعتبرها السلطات الفرنسية على حد قول نائب طرابلس محمد ناجي (1908-1912م) إنها غير عهدية بمعنى جواز تقسيمها وتجزئتها عند الحاجة. (ناجي وآخرون: 1973، 208).

هنا وجد السنوسيون أنفسهم محاصرين بين أمرين: إما قبول الخلافة العثمانية والتبعية لها مع ما يفرضه ذلك من تكيف، وإما الخضوع والاستسلام للفرنسيين الذين يسعون للسيطرة بالحديد والنار على تلك المناطق، وفي مفترق الطرق ازداد الوعي لدى السنوسية، وتحولت رويداً رويداً إلى حركة سياسية، ونظمت نفسها لحمل السلاح ضد العدو الذي اعتبرته دخيلاً ولا يمكن التعايش معه. (الشريف: 195، 2008) وأخذ السيد محمد المهدي منذ ذلك الحين في استحضار المهمات الحربية لجماعته إعانة للدولة العثمانية باعتبارها تمثل دولة الخلافة الإسلامية. (الموصلي: 1912، 40).

من المعروف إن العداء السنوسي للأوروبيين عامة، والفرنسيين خاصة جاء منذ أن احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، وإن وجود السنوسيين في ليبيا يرجع إلى قدوم السيد محمد بن علي السنوسي إليها في أربعينات القرن الثامن عشر، هرباً من بطش الفرنسيين، الأمر الذي ولد كرهاً مستمراً توارثه الأبناء، والأحفاد من بعده، والاخوان السنوسيين بصفة عامة، وإن لم تحدث مواجهة مباشرة بين الطرفين، إلا إن جمعيات المبشرين المنتشرة في أفريقيا طالما كانت تشكو من السنوسيين وتتهمهم بعرقلة أعمالها، كما تبين ذلك مؤلفات أوربية عديدة. (ستودارد: 1973، 163) ويذكر أن الرحالة الفرنسيون كانوا من أنشط الجماعات الأوروبية التي أهتمت بدراسة الدعوة السنوسية. (قاسم: 1996، 316).

أن انتقال السنوسيين للكفرة واستقرارهم فيها، وتطلعهم إلى التوغل نحو الجنوب الأفريقي في وادي، وباقرمي، وكانم، ووصول دعوتهم إلى ما وراء الصحراء على يد دعائتها، وشيوخها، وتأسيس الزوايا، وإدخال الملايين في الدين الإسلامي، أدى إلى ازدياد شكوى الفرنسيين، وتدميرهم، فباشرت فرنسا على الفور هجومها العسكري على الزوايا السنوسية، وشرعت في تدميرها، مما لم يترك خياراً للسيد محمد المهدي سوى المقاومة، فعزم فوراً على الرحيل إلى قرو وذلك في شهر جمادى الآخر 1317هـ الموافق أكتوبر 1899م، ليقود من هناك معارك الدفاع عن الزوايا السنوسية ضد الفرنسيين. (المهدي السنوسي: 2022، 28).

فرنسا التي طالما نددت باستمرار بما تسميه مؤامرات الطريقة السنوسية ضد رعاياها، والتي ظلت تتربص بها منذ نصف قرن تقريباً، وتكيل لها الاتهامات، وتدعي بأنها تصنع الأسلحة، وتستعد للمواجهة، واتهمتها أيضاً بقتل الرحالة، والمستكشفين مراراً وتكراراً، ونعتتها بأنها الأسطورة السوداء على حسب اعتقاد نائب قنصلها في بنغازي (يوجين ريكارد) (Triaud: 1995، 129) في الفترة من 1866-1895م وعلى لسان بعض رجالها من أمثال دوفيرييه، ومسئولها أمثال ليون روش القنصل الفرنسي في طرابلس الذي كان له الدور الأبرز في هذا الاكتشاف، (عبيد الله: 2018، 521) والسنوسية من جانبها كانت تستقبل المجاهدين الجزائريين الفارين من بطش فرنسا أثناء احتلالها للجزائر، وكل من لهم مشاكل مع السلطات الفرنسية، ومع كل هذه التراكمات وجد الطرفان نفسيهما في إقليم واحد، وكلاً منهما يريد فرض سيطرته، وأثبت وجوده، مع اختلاف الأهداف التي يسعى إليها كل طرف.

لم تطل مدة إقامة السيد محمد المهدي في الكفرة، التي أقام بها نحو ثلاث سنوات ونصف، وفي النصف الأخير من عام (1317هـ/ 1899 م) رحل عنها بأتباعه، وعوائله جميعاً، إلى جهة الجنوب داخل السودان، في رحلة دامت حوالي شهرين تقريباً، ثم استقر في بلدة قرو في تشاد، مما زاد من عدد أتباعه، وزاد أيضاً من فزع فرنسا التي جندت جنودها لمحاربة السنوسيين وطردتهم من تلك الجهات، وبالمقابل تعامل السنوسيون بالمثل. (الشريف السنوسي: 2022، 38) وكان هذا من أهم الآثار التي ترتبت على انتقال السنوسية من الجيوب إلى الكفرة.

كان الحذر هو سيد الموقف فقد اضحى السنوسيين والفرنسيين جيران في تلك الصحراء وكان لابد من المواجهة ففي رسالة بعث بها السيد محمد المهدي بتاريخ 23 يوليو 1900م للبراني الساعدي (القشاش: 2016، 44) يشرح فيها موقفه ويقول له: "لا تغتروا من الجيران، أعني جيران السوء، بما يشاع على الألسنة من قولهم ما بيننا وبين الجماعة الفلانية إلا العافية، ولا نريد لهم حرباً، فلتأخذوا حذرهم ومن هجومهم بغتة، فلهم في الخيانة سوابق مشهورة، ولا تتركوا السؤال عن عدد البيض منهم والسود، ويكون ذلك كله منكم بلطف من غير أن يعرف ذلك منكم، والله الهادي إلى الصراط المستقيم، ولابد من الاعلام منك بالأحوال مع كل وارد حتى يحصل عندنا من العلم ما هو حاصل عندكم، والله الموفق، إن تجدد أمرهم، فلا تغفلوا عن إرسال مخصص به". (تريو: 2013، 112).

على الجانب الفرنسي كان الاعتقاد السائد لديهم إن السنوسية وراء اغتيال وتذبيح أفراد عدد من البعثات الفرنسية في منطقة تشاد، وعلى الخصوص بعثة (كرامبيل Crampel) (فيرو: 1983، 741) وكان ذلك مبررهم للاستيلاء على الأراضي التشادية، فتقلصت تجارة القوافل التي تحولت بفعل فرنسا إلى سواحل المحيط الأطلسي مما أدى إلى نقص العاج، وريش النعام، وإن لم تتأثر بذلك التجارة مع مملكة واداي كلياً، إلا أنها كانت مسألة وقت فقط بالنسبة للفرنسيين، خاصة إنهم كانوا يهتمون السنوسية بتجارة الرقيق التي جرى تحريمها، على طريق بنغازي واداي. (فيرو: 1983، 744).

لم يمض وقت طويل على اشتداد اللهجة بين الجانبين حتى تم تصعيد الموقف لدرجة وصول الأسلحة إلى مواقع النزاع كما تبين إحدى الوثائق التي تحصل عليها الفرنسيين في زاوية بئر علالي فيما بعد، والتي تفيد بوصول خمسين بندقية نوع (ريمينجتون - Remington)، وكذلك 523 رصاصة، ومملوك من الكفرة لإصلاح الأسلحة، (تريو: 2013، 126) ورسالة أخرى من محمد البسكري إلى السيد البراني يلومه فيها عن التساهل في مراقبة الأعداء، ويأمره بالحزم في متابعة تحركاتهم، ويوصيه بالاعتماد على الطوارق، (تريو: 2013، 135) كانت أولى المواجهات في معركة بئر علالي الأولى في 9 نوفمبر 1901م، حيث تقدم الفرنسيين في حملة مجهزة بالأسلحة الحديثة، والمعدات، نحو كانم (بن مبروك: 2010، 108) وكان تعدادها يزيد عن 3000 مقاتل (الشريف السنوسي: 2022، 38) واستعد السنوسيون لملاقاتهم بعد أن وضعوا حامية كبيرة في بئر علالي، واشتبك الطرفان، وكان النصر حليف السنوسيين بقيادة الشيخ البراني الساعدي، وقتل من الجانب الفرنسي القائد (ميلوت - Milot) (القشاش: 2017، 74) رفقة عدد كبير من الفرنسيين، في حين كانت خسائر السنوسيين ثلاثمائة شهيد، من بينهم ستة من الاخوان، بالإضافة إلى عدد كبير من الجرحى. (بن مبروك: 2010، 108).

بعد المعركة الأولى تم تكليف الشاب محمد أبو عقيلة الزوي رئيساً لزاوية قرو بدلاً من البراني الساعدي الذي غادر إلى زاوية عين كلك، ووصل الشاب محمد أبو عقيلة في نجدة للمجاهدين الذين هاجمهم الفرنسيين في زاوية بئر علالي (المعركة الثانية 18 يناير 1902م) (قناوي: 2013، 192) ويبدو إنهم كانوا داخل الزاوية، وباغت أبو عقيلة الفرنسيين خارج حصن زاوية بئر علالي، في مركز لهم أقاموه خارج الزاوية، واستولى عليه بما فيه، ثم قرر مهاجمتهم في الزاوية نفسها مما أدى إلى إطالة عمر المعركة لليوم التالي، حيث أستشهد الكثير من الشهداء، (الأشهب: 1953، 73) منهم: عبدالله بن موسى فريطيس، والشيخ أبوبكر بواقويطين، والشيخ يونس بدر، والشيخ السنوسي خيرالله، وشقيقه الشيخ عبدالله خيرالله، وعدد كبير من المجاهدين جلهم من قبيلة الزوية، (الأشهب: 1953، 73) وكانت خسائر الفرنسيين كبيرة إذ وصلت إلى 280 قتيلًا، بينهم خمسة وعشرون ضابط حسب

الروايات العربية، (الشريف السنوسي: 2022، 39) وفي اليوم التالي زحف الفرنسيون بأعداد كبيرة، واشتبكوا مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين وسقوط زاوية بئر علالي في أيدي الفرنسيين، (بن مبروك: 2010، 109) وبهذا تسجل زاوية بئر علالي سبق في كونها أول من رفع السلاح في وجه الفرنسيين في شمال بحيرة تشاد، وتمكنت من هزيمتهم في أول المواجهات، إلا أن فارق العدة والعتاد، أجبر السنوسيين على الانسحاب بأقل الخسائر الممكنة. (نجم: 2020، 168).

تختلف المصادر الفرنسية عن العربية في تحديد الخسائر فمثلاً يورد المؤرخ الفرنسي جان لويس تريو في كتابه الأسطورة السوداء، جدولاً للخسائر، يذكر فيه أن خسائر الفرنسيين في المعركة الأولى 6 قتلى و34 جريحاً فقط، بينما الجانب السنوسي خسر 300 رجل حسب قوله، أما المعركة الثانية فكانت خسائر الفرنسيين حسب تقديره 10 قتلى، و34 جريحاً في اليوم الأول، و13 قتيلاً و16 جريحاً في اليوم الثاني، بينما خسر السنوسيون أكثر من 200 رجل. (Triaud:1995 , 633).

في هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة السيد محمد المهدي وكان ذلك يوم الأحد 24 صفر 1320هـ/ الموافق 2 يونيو 1902م. (الصلابي: 2017، 75) واقترح السيد أحمد الريفي نقل جثمان السيد محمد المهدي إلى الكفرة وبالفعل نقل إلى هناك وتم دفنه في زاوية التاج، (الصلابي: 2017، 72) وتولى الشيخ أحمد محمد الشريف السنوسي قيادة الطريقة السنوسية بمباركة من الإخوان السنوسيين الذين عدوا وفاة السيد محمد المهدي في ساحة القتال دافعاً لهم لمواصلة الجهاد ضد الفرنسيين. (الصلابي: 2017، 75).

تابع السنوسيون القتال إلى فترات متقدمة تساندتهم القبائل الليبية المتواجدة في تشاد، والقادمة من ليبيا لنجدتهم من أولاد سليمان، والزوية، والمجبرة، والطوارق، والتبو، كان من أشهر قادة السنوسية في جهادها ضد فرنسا: المجاهد عمر المختار، محمد كاوسن، عبد الله السني، عبد الله فضيل، الطوير الزوي، البراني الساعدي، غيث عبد الجليل سيف النصر، محمد بو عقيلة الزوي، صالح بو كريم الزوي، الكيلاني الأطيوش المغربي، عابدين الكنتي. (الشريف: 2008، 280).

تولي السيد أحمد الشريف قيادة الطريقة السنوسية بناء على وصية عمه السيد محمد المهدي على أن يكون وصياً على أبنه محمد إدريس نجل محمد المهدي الأكبر الذي يعد الخليفة الشرعي، (ستودارد: 1973، 61) وفور توليه نقل مقر قيادته إلى الكفرة، وقام بإعادة تشكيل قواته من جديد وأعتمد على مجموعة مختارة من الرجال كلفهم بقيادة القوات السنوسية منهم: محمد البراني في كانم وكاور، ومحمد السني في بورنو وباقرمي، وصالح بو كريم الزوي في جبل الدور، ومحمد الأشهب في واحات واو، وعبدربه البرعصي في الوجنقة الكبرى، وعبدالرازق الفاخري في الوجنقة الصغرى وعبدالله الفضيل الطوير في قارة يفز وقارة يكر، وإبراهيم الغبي في واحة أرضي الصغرى، والسنوسي الغاتي في واحة وان، وكلف على رأس المجاهدين محمد عقيلة الزوي الذي عرف بالذكاء والشجاعة، والذي قام بجمع عدد كبير من أبناء الطوارق، وأولاد سليمان، والقذاذفة، والمغاربة، والزوية، وخاض بهم معركة بئر علالي الثالثة بتاريخ 4-5 ديسمبر 1902م، (قناوي: 2013، 194) التي أسفرت عن خسارة المجاهدين رغم صمودهم في اليوم الأول، إلا أن استشهاد قائدهم محمد أبو عقيله في اليوم الثاني للمعركة 5 سبتمبر 1902م، إضافة إلى أكثر من مائة شهيد، منهم ستون من قبيلة الزوية فقط، (القشاش: 1998، 36) أدى ذلك إلى انسحابهم نحو بوركو (فايا) ليعيدوا تشكيل قواتهم من جديد. (قناوي: 2013، 195).

على كل حال استمر الصراع السنوسي الفرنسي سنوات عديدة بعد ذلك واستمر إلى عام 1914م وجرت معارك عديدة منها معركة بئر علالي الرابعة مايو 1904م، ومعركة عين كلك الأولى 1904م، والثانية 1907م، ومعركة بسكرى 1907م، ومعركة عين كلك الثالثة 1908م، ومعركة فادا 1909م، ومعركة ووي مايو 1913م، ومعركة عين كلك الرابعة (أم العظام) 1913م، ومعركة عين كلك الخامسة 1913م، ومعركة قرو 14 سبتمبر 1913، التي تعد من أكبر المعارك بين الطرفين، ومعركة برداي 13 يونيو 1914م، والتي انتهت بانسحاب المجاهدين إلى منطقة الكفرة، (قناوي: 2013، 195-200) ولكننا لسنا

بصد الحديث عنها بالتفصيل وإنما تمت الإشارة إليها فقط لبيان مدى تأثير انتقال السنوسيين من الجيوب إلى الكفرة، ومنها إلى قرو، مما أسفر عن حدوث مثل هذه المواجهات.

تحليلاً لما سبق فإننا نرى أن وجود السنوسيين في الكفرة أسفر عن حدوث المواجهة المرتقبة مع الفرنسيين، والتي طالما كانت مؤجلة بسبب عدم احتكاك الطرفين، ونستنبط من ذلك إن السنوسيين كانوا يرغبون في هذه المواجهة، بدليل انتقالهم إلى ميدان المعركة في قرو، أو بالأحرى تجنب المواجهة في أراضيهم، أي بمعنى إنهم كانوا يرون أن الاصطدام مع الفرنسيين واقع لا مفر منه، لذلك أرادوا ملاقات العدو بعيداً عن مركز قيادتهم الكفرة، وعلى الجانب الفرنسي فإن الفرنسيين كانوا يرغبون في الحد من نشاط السنوسيين في السودان، وتشاد، وسيطرتهم على طرق القوافل، (G.Arnaud:1925, 188) والذي أصبح يتزايد يوماً بعد يوم.

بالرغم من حماسة السنوسيين واندفاعهم إلا أن عدم تكافؤ الطرفين في القوة والتسلح، أسفر عن خسارة السنوسيين، وتفوق الجيش الفرنسي المجهز بأحدث الأسلحة على قلة من المجاهدين غير المدربين والمجربين من أبسط أنواع التسلح، كذلك استشهاد الكثير من المجاهدين الذين يعول عليهم مثل البراني الساعدي الزوي، وعبدالله الطوير الزوي، وعبد الرحيم الدالية، وصالح بن علي الشريدات، وعبد الله العقاب، ومحمد النايبي المقرحي، والشيخ عفيف العبيدي، وحمد العريضة البرعصي، وعبد السلام الجويفي، (القشاش:1998، 37) وغيرهم كثيرون من العرب، والطوارق، والتبو، أضف إلى ذلك تقاعص الدولة العثمانية في إمدادهم بالأسلحة والذخائر، أو حتى بالمؤمن اللازمة لضمان استمرار المقاومة، علاوة على العدوان الإيطالي الذي أصبح وشيكاً على الأراضي الليبية، مما تطلب رجوعهم للذود عن أرض الوطن، وبالرغم من توقف القتال بين الجانبين يلاحظ المتتبع استمرار العمليات العسكرية بين الليبيين والقوات الفرنسية لسنوات طويلة، وإن انسحاب المجاهدين لم يكن إلا لأدراكهم أن الحرب النظامية ليست في صالحهم، لذا قرروا الانسحاب ثم العودة، واتباع أسلوب الكر والفر ليس في الصحراء فقط، بل حتى في الجنوب التونسي والجزائري. (قناوي:2013، 202).

الخاتمة:

من خلال هذا البحث توصلنا لعدة نتائج من أهمها:

- أن ذهاب السادة السنوسية للكفرة كأنه كان تنفيذاً لوصية المؤسس السيد محمد بن علي السنوسي الذي طالما كان يحث اتباعه وخلفائه على ضرورة الذهاب للكفرة تجنباً لضغوط الدولة العثمانية والقوى الاستعمارية المحيطة بها.
- محاولة السلطات العثمانية التقرب من السيد محمد المهدي بعد انتقاله إلى الكفرة بعد أن شعرت بالفراغ السياسي الذي يمكن أن يتركه لو أنه فكر في المغادرة إلى السودان وإدراكها بأن هذا هو ما تسعى له الدول الاستعمارية خاصة فرنسا حتى يخلو لها المجال بالسيطرة على الجنوب البرقي.
- تطور العلاقات السنوسية الإفريقية خاصة في المجال الاقتصادي حيث تحسنت تجارة القوافل على طريق بنغازي- وادي أو ما يعرف بالطريق الشرقي الذي أمنته السنوسية وأصبح شريان حيوي يربط بين الصحراء وسواحل البحر المتوسط.
- تدهور العلاقات السنوسية الفرنسية حيث وصلت إلى الصدام المسلح بين الطرفين بالرغم من عدم التكافؤ في التسلح مع تقاعص السلطات العثمانية عن دعم السنوسيين مما أدى إلى هزيمة السنوسيين وتراجعهم خاصة بعد وفاة السيد محمد المهدي.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- تحوال في شمال أفريقيا، هاملتون جيمس، ترجمة إبراهيم المهدي، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2008م.
- الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، فيرو شارل، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، 1983م.

- الدر الفريد الوهاج بالرحلة المنيرة من الجغبوب إلى التاج وليه الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر، السنوسي أحمد بن محمد الشريف بن محمد بن علي، تحقيق أحمد محمد جادالله - عبد الغني عبد الله محمود، ط1، منشورات جمعية الإمام محمد بن علي السنوسي للثقافة والتراث، بنغازي، 2022م.
- رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا، العظم صادق باشا مؤيد، ترجمة عبد الكريم ابوشويرب، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1988م.
- مختصر الانوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية، السنوسي أحمد بن محمد الشريف بن محمد بن علي، تحقيق أحمد محمد جاد الله، ط1، منشورات جمعية الإمام محمد بن علي السنوسي للثقافة والتراث، دار الصالح، 2022م.
- المولد الشريف النبوي، السنوسي محمد المهدي بن محمد بن علي، حققه وقدم له أحمد محمد جادالله، ط1، منشورات جمعية الإمام محمد بن علي السنوسي للثقافة والتراث، دار الصالح، القاهرة، 2022م.

ثانياً: المراجع العربية والمعرية:

- الاستقلال الحضاري، عمارة محمد، ط1، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.
- الإسلام في السودان، تريمينجهام ج، ترجمة فؤاد محمد عكود، مطابع المجلس الأعلى للأثار، د.م، 2001م.
- الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله، العقاد عباس محمود، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، قاسم جمال زكريا، دار الفكر العربي، مصر، 1996م.
- أعلام من الصحراء، القشاط محمد سعيد، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1997م.
- برقة العربية أمس واليوم، الأشهب محمد الطيب، مطبعة الهواري، القاهرة، 1946م.
- البعد الإيجابي في العلاقات العربية-الأفريقية والتعددية الإثنية كرابط ثقافي، بغداداي عبد السلام إبراهيم، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2013م.
- تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني، بازامة محمد مصطفى، دار الحوار الثقافي، ط1، بيروت، 1994م.
- تاريخ حرب طرابلس، المصري محمد إبراهيم لطفي، ط1، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، بنها، 1946م.
- تاريخ طرابلس الغرب، ناجي محمود، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الاسطى، منشورات الجامعة الليبية، مطبعة الغريب، بيروت، 1970م.
- تاريخ ليبيا من أقدم العصور، رايت جون، ترجمة عبدالحفيظ الميار - أحمد البازوري، ط1، دار الفرجاني، طرابلس، 1972م.
- التحفة السنية في المشايخ السنوسية، الموصلي علي الجميل، مطبعة سرسم، الموصل، 1331هـ/ 1912م.
- تشاد، شاكر محمود، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، القاهرة، 1973م.
- جغرافية وتاريخ السودان، شقير نعم، تقديم فدوى عبد الرحمن علي طه، ط1، دار عزه للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2007.
- حاضر العالم الإسلامي، الأمريكي لوثرروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب ارسلان، مج1، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1973م.
- الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، الدجاني أحمد صدقي، ط1، دار لبنان للنشر والطباعة، بيروت، 1967م.
- السنوسي الكبير - عرض وتحليل لدعاة حركة الإصلاح السنوسي، الأشهب محمد الطيب، مطبعة محمد عاطف، القاهرة، د.ت.
- السنوسية دراسة لحركة إحيائية في الإسلام، زيادة نيقولا، ترجمة عبد المطلب محمد الوحيشي، دار الوليد، طرابلس، 2024م.
- السنوسية دين ودولة، شكري محمد فؤاد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.

- السنوسية في مواجهة فرنسا حرب فرنسية ليبية منسية تشاد 1900-1902م، تريو جان لويس، ترجمة خالد محمد جهيمة، ط1، دار الفرجاني، طرابلس، 2013م.
- السنوسية، الشريف مفتاح السيد، ط1، دار الاستقلال، القاهرة، 2008م.
- سيرة الزعيم محمد المهدي السنوسي، الصلابي علي محمد، ط1، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع، إسطنبول، 2017م.
- الصحراء الكبرى، فيرون ريمون، ترجمة جمال الدين الدناصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1993م.
- الصحراء تشتعل 1899-1931م، ط1، القشاط محمد سعيد، دار الملتقى للطباعة والنشر، الاسكندرية، 1998م.
- الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، تشايجي عبد الرحمن، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1993م.
- طرابلس الغرب، ناجي محمد ونوري محمد، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1973م.
- العلاقات الليبية التشادية 1843-1975م، الحنديري سعيد عبد الرحمن، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1983م.
- عمر المختار، الأشهب محمد الطيب، نشر على نفقة السيد عبد الله عابد السنوسي، القاهرة 1957م.
- قضية ليبيا، الشنيطي محمود، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م.
- الكفرة وحوادث الأيام في سبعة وأربعين عام، بو مطاري مصطفى عبد الحميد صالح، ط1، دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، 2020م.
- ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب آخر العهد العثماني الثاني (1882-1911م)، الدجاني أحمد صدقي، ط1، دن، القاهرة، 1971م.
- ليبيا والعلاقات التاريخية مع دول الجوار، القشاط محمد سعيد، ط1، مكتبة جزيرة الورد، 2017م.
- المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا-دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار 1830-1932م، احميده علي عبد اللطيف، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م.
- محمد عبد الله السني 1851-1932م (ترجمته وتحقيق ما تبقى من آثاره)، جبران محمد مسعود، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2006م.
- مدونة أحداث العالم العربي ووقائعه 1800-1950م بحسب التسلسل الزمني، أرسلان شكيب، ط2، الدار التقديمية، لبنان، 2011م.
- المسألة الليبية في تسوية السلام، بيشون جاك، ترجمة علي ضوي، ط1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1991م.
- المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، إبراهيم عبد الله عبد الرازق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1998م.
- من أعلام الجهاد الليبي 1889-1943م، القشاط محمد سعيد، ط1، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2016م.
- المهدي السنوسي، الأشهب محمد الطيب، مطبعة بلينيو ماجي، طرابلس، 1953م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- *La Légende Noire de la Sanûsiyya – une confrérie Musulmane Saharienne Sous le Regard Français (1840-1930)*, Triaud Jean-Louis, Vo1, Editions de la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1995.
- *La Légende Noire de la Sanûsiyya – une confrérie Musulmane Saharienne Sous le Regard Français (1840-1930)*, Triaud Jean-Louis, Vo2, Editions de la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1995.

- *La Confrérie Musulmane de sidi Mohammed ben Ali es-Senoussi*, Duveyrier Henri, ET son domaine Geographique, Paris, 1884.
- *Le Sénoussie et la Double Traversée. Désert de Libye*, Arnaud. G, (in) : Annales de Géographie, Volume 34, Numéro 188, Année 1925.
- *Les Relations Franco-Libyennes, Thèse pour le doctorat en sciences politiques* Saifelnaser Bulhasen, PH.D, Faculté de droit et de sciences politiques, Université d' Auvergne, Clermont-Ferrand, 2008.
- *Marabouts et Khouans, Etude sur L'Isam en Algérie*, Rinn. Louis, Adolphe Alger Jourdan, Libraire-Éditeur, 1884.

رابعاً: الرسائل العلمية:

- *الاحتلال الفرنسي لنشاد 1890-1920م*، بن مبروك نوى، رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2010م.
- *برقة وتجارة القوافل خلال القرن التاسع عشر*، عبيد الله محمد محمود محمد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، قسم التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة عين شمس، 2013م.
- *السيد محمد المهدي ودوره في تطوير الحركة السنوسية (1844-1902)*، ابريدان عبد السميع عبد الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، في التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة بنغازي، 2014م.
- *الطريقة السنوسية وعلاقتها بالدولة العثمانية من التأسيس وحتى الاحتلال الإيطالي لليبيا 1843-1911م*، زينة حبيبة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة غرداية، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، قسم التاريخ، الجزائر، 2021م.

خامساً: البحوث العلمية:

- 1- *التجارة الصحراوية الأفريقية والمسألة الشرقية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين*، شطب جاسم محمد، مجلة جامعة كربلاء العلمية، مج 9، ع4، 2011م.
- 2- *جنود الصراع الليبي التشادي على أوزو*، عبد الحسين غسان ناصر وعبود وسن سعيد، مجلة الآداب، ملحق 1، ع137، جامعة بغداد، يونيو 2021م.
- 3- *جهاد الليبيين ضد الاحتلال الفرنسي 1901-1914م*، قناوي ارويحي محمد علي، مجلة البحوث التاريخية، ع2، مج35، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2013م.
- 4- *الركائز الأساسية في الدعوة السنوسية*، العسكري السنوسي يونس، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية، ع25، المرج، جامعة بنغازي، يناير 2017م.
- 5- *زاوية عين كلك في تشاد من الدعوة إلى الجهاد 1899-1913م*، نجم أحمد مراجع، مجلة كلية الآداب، ع48، أغسطس 2020م، جامعة بنغازي، 2020م.
- 6- *قصر يلدر نجمة خلود الترف العثماني*، عبد الرازق عدنان، مجلة العربي الجديد، ع2698، السنة الثامنة، لندن، 20-يناير 2022م.
- 7- *الليبيون في تشاد وموقفهم من الاحتلال الفرنسي لمملكة كانم (1842-1914م)*، بن مبروك نوى، مجلة دراسات إفريقية، مج3، ع7، الجزائر، مايو 2019م.
- 8- *مرحلة الاكتشاف والتربق في العلاقات الفرنسية السنوسية*، عبيد الله محمد محمود، مجلة المختار للعلوم الإنسانية، مج29، ع1، جامعة عمر المختار، البيضاء، 2018م.